ابن مماتي [ت609هـ/1209م] المصري، سيرته وكتابه الفاشوش في حكم قراقوش

أ.م. د إيناس عماد عبد المنعم
الجامعة المستنصرية / كلية الاداب / قسم التاريخ

الملخص:

لقد تألق ابن مماتي من بين إفراد أسرته ونال شهرة كبيرة وكان محافظا على أسرار الدولة الأيوبية من خلال عدم تصريحه بالمعلومات السرية المتعلقة بالإنتاج الزراعي والإعمال الخاصة بمصر ونواحيها حيث كان يدعوا في كتابه قوانين الدواوين المصريين إلى دعم الدولة الأيوبية وبذل أقصى الجهود الممكنة من اجل رفعتها .

لقد عرف ابن مماتي بالكفاءة الإدارية المتميزة بل عرف أيضا أديبا وقد ألف المصنفات الكثيرة كونه أديبا لامعا وساخرا لما يتمتع به من قدر عالية في التأليف وأنجز فيها مجموعة كبيرة من المصنفات .

وتأتى أهمية كتاب الفاشوش من موضوعه الذي يدور حول شخصية قراقوش الذي يمثل وزير الحرب لدى السلطة الأيوبية، وحين قامت الدولة الأيوبية قربه السلطان صلاح الدين، وجعل منه قائدا عسكريا كبيرًا. وبعد وفاة السلطان صلاح الدين خدم لدى ابنه السلطان العزيز، ولفترة قليلة لدى السلطان العادل، بعدها توارى قراقوش في الظل حتى وفاته سنة 597هـ / 1200 م

المقدمة

تميز العصر الفاطمي بالنفوذ والسلطان لأهل الذمة ، فكان منهم الوزراء والكتاب وعمال الدواوين وجباة الخراج، وساعدهم على ذلك أنهم كانوا أصحاب دراية بالأعمال الكتابية والحسابية وتحرير الرسائل.ومن الأسر المسيحية التي لمعت في أواخر العصر الفاطمي أسرة "مَمّاتي" وكانت تعيش في "أسيوط" من صعيد مصر، ثم انتقلت إلى القاهرة، والتحقت بخدمة الفاطميين، حيث تولى أبناؤها مناصب مهمة في دواوين الدولة. وكان من احدهم ابن مماتي فقد أصبح مسؤول عن ديوان الجيش ثم أضيف إليه ديوان المال الذي أصبح أهم الدواوين في مصر ومن خلال عمله في الدواوين ألف

كتاب قوانين الدواوين وكان هذا الكتاب سجلا حيا للدواوين في الدولة الأيوبية .وكذلك إلف كتاب الفاشوش في حكم قراقوش وغيرها، يهدف البحث إلى دراسة سيرة ابن مماتي اولا ثم دراسة كتابه الفاشوش في حكم قراقوش يتضمن البحث أربعة مباحث تناول المبحث الأول اسمه ونسبه والثاني عن نشأته العلمية، إما المبحث الثالث فتضمن مكانته العلمية ، إما المبحث الرابع فتضمن كتاب الفاشوش في حكم قراقوش ثم المصادر والمراجع .

الفصل الأول: سيرة ابن مماتي

المبحث الاول

أولا : أسمه ،نسبه ، كنيته ، نسبته

أسعد بن الخطير بن مهذب أبي المليح بن مينا بن زكريا بن مماتي ، أبو المكارم المصري الكاتب المعروف بالقاضي الأسعد من قبط مصر كان آباؤه نصارى وجد أبيه أبو المليح مماتي[1] ومينا بكسر الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح النون وبعدها ألف ومماتي بفتح الميمين والثانية منهما مشددة وبعد الألف تاء مثناة من فوقها وهي مكسورة وبعدها ياء مثناة من تحتها وهو لقب أبي مليح المذكور وكان نصرانيا وإنما قيل له مماتي لأنه وقع في مصر غلاء عظيم وكان كثير الصدقة والإطعام وخصوصا لصغار المسلمين فكانوا إذا رأوه ناداه كل واحد منهم مماتي فاشتهر به هكذا أخبرني الشيخ الحافظ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم المنذري نفع الله به [2].

اما نسبة ابن مماتي فقد اشتهر نسبه الى جده الاعلى (مماتي) وكانت هذه النسبة قد ارتبطت باسعد اكثر من باقي افراد اسرته[3] وله مجموعة من الالقاب من ابرزها هو الاسعد وهو كان يشار بها لابن مماتي ويدل هذا اللقب الى ارتفاع مكانته بين افراد المجتمع [4].

ثانيا :مولده

ولد الأسعد بن المهذب بن مينا بن زكريا، المعروف بابن مماتي سنة (544هـ/ 1149م) في القاهرة، في أواخر الدولة الفاطمية التي كانت تحتضر وتلفظ أنفاسها الأخيرة، ونشأ في كنف والده "المهذب بن مينا المعروف بالخطير"، الذي أسلم هو وأسرته في محضر الوزير أسد الدين شيركوه بعهد الناصر صلاح الدين الايوبى. ونشأ في كنف والده الذي كان يعقد مجالس الفقه والأدب في بيته، مما وثق حب الأدب في نفسه ، وجعله شاعرا مثقفا ورائدا لأدب السخرية فى زمانه[5].

ثالثا :نشأته

لقد تعلم اسعد الأدب والتاريخ من خلال والده الذي كان يصطحبه معه إلى الديوان ليعلمه الكتابة والأدب وفق السياقات الاجتماعية التي كانت سائدة في المجتمع زمن الفاطميين[6] كما درس اللغة[7] وقد نشأ "الأسعد" محبا للعلم والأدب حيث تردد على مجالس الأدب التي كانت تعقد في دار أبيه، وصادف ما يدور فيها هوى في نفسه، فمال إلى الأدب ونظم الشعر، وبعد إسلامه أخذ يختلف إلى مجالس الفقهاء والمحدثين، ويتزود بثقافة إسلامية رفيعة[8] بالإضافة الى ذلك درس الفقه والحديث والعلوم الأخرى مثل الفلسفة والهندسة والرياضيات ومن قراءة كتابه قوانين الدواوين نجد انه قد اختص بامر المال والجيش والجغرافية وهي من شروط الأساسية للناظر[9].

لقد كان اسعد صديقا للقاضي الفاضل الذي شجعه ومكنه من الكتابه والشعر وتصنيف المؤلفات التي الفها الاسعد[10].

رابعا : أسلام ابن مماتي

ترجع قصة ابن مماتي مع الاسلام حيث يرجع أصل أسرة (ممّاتي) الى النصرانية التي تبوأت منزلة رفيعة في عهد الدولة الفاطمية، وهي أسرة كانت تعيش في أسيوط ثم انتقلت إلى القاهرة للعمل في دواوين الدولة، إذ انفتح الفاطميون كثيراً على أهل الذمة وعينوهم في مناصب رفيعة، وقد تبوأ جد الأسعد (أبو المليح مينا) منصب مستوفي الدواوين ونال حظوة عند الفاطميين، اما أبوه (المهذب) فقد تولى رئاسة ديوان الجيش وفي عهد السلطان صلاح الدين بن يوسف، جمع المهذب أولاده ودخل على السلطان، وأسلموا على يديه، فقبلهم وأحسن إليهم، وزاد في ولاياتهم، وبقي أبوه في الديوان حتى وفاته[11]. وحين اصبح مسلما تعمق في دراسة الإسلام وإحكامه وعلومه[12] الا ان هناك روايات تعكس ضعف اسلام الاسعد بن مماتي حيث اشار ابن الوهراني (ت، 575هـ/ 1179م) الى شكوكه باسلامه فلم يصدق بدموعه التي يراها حين سماعه القران الكريم اثناء وجوده في القرافة[13] وان الشاعر ابن الذروري يقول انه وجد بخط ابن مماتي البيت الشعري الاتي الذي يقول :

صح التمثل في قديم الدهر ان العود احمد[14]

وقد علق الشاعر ابن الذروري عن زيف إسلام ابن مماتي وعائلته من خلال تمثله بأبيات شعرية جميلة يقول فيها :

لم يسلم الشيخ الخطير لرغبة في دين احمد
بل ظن أن محاله يبقى له الديوان سرمد
وألان قد صرفوه عنه فدينه فالعود احمد[15]

خامسا :أسرته

ويعود مماتي بأصوله إلى أسيوط، وهو لقب جده أبي المليح، وهو من الاقباط، وكان كثير الصدقة والإطعام لصغار المسلمين، فإذا رأوه نادوه «ممّاتي» فاشتهر به وغلب عليه. وكان من كتّاب الدولة الفاطمية أيام بدر الجمالي، وقد جمع بين الفضل والنبل حتى حاز محبة الناس، وأثنى عليه الشعراء[16] قال القفطي عن ابن مماتي: كان من أقباط مصر في عصرنا ، وكان جده جوهرياً ، يصبغ البلور صبغة الياقوت فلا يعرفه إلا الخبير بالجواهر ، وهذا يعني أنه كان يدلس ، فلا غرو ولا غرابة أن يمتهن حفيده مهنته في تزييف الحقائق عن بعض الرجال ، ومن يشابه أبه فما ظلم[17] أما الخطير والد اسعد فكان كاتب ديوان الجيش في أواخر العهد الفاطمي وبداية العهد الأيوبي. وقيل كان على ديوان الإقطاعات وهو على دين المسيحية.

الى ان وزر اسد الدين شيركوه سنة 564هـ/1168م لدى العاضد الفاطمي الذي كان قد ضيق على غير المسلمين من النصارى فاجبرهم على اشياء مثل لبس الغيار[18] وشد الزنار ورفع الظيفره[19] التي تسمى اليوم بالعذبة فكتب لأسد الدين: يا أسدَ الدين ومن عدله يحفظُ فينا سنَّةَ المصطفى كفى غيارًا شَدَّ أوساطنا فما الذي أوجبَ كشفَ القفا فلم يسعفه بطلبته ولا مكنه من إرخاء الذؤابة وعندا آيس من ذلك أسلم فقُدِّم على الدواوين حتى مات فخلفه ابنه ابو المكارم اسعد بن مهذب الملقب بالخير على ديوان الجيش، لكن بعد وفاة أسد الدين شيركوه ومجيء صلاح الدين بقي في منصبه في ديوان الجيش حتى وفاته[20] حيث كان يوما جالسا في ديوانه في حجرة موسومة بديوان الجيش من قصر السلطان بمصر ، وكانت حجرة حسنة مرخمة فجاء قوم وقالوا له: قم من ها هنا، فقال لهم: مالخبر ؟ فقالوا: قد تقدم الملك العادل ابو بكر بن ايوب بأخذ رخام هذه الحجرة وان يعمر بها موضعا اخر ، فخرج منكسرا كاسفا فقيل له في ذلك فقال : قد استحببت فينا دعوة، وما اظني اجلس في ديوان بعدها ، ثم دخل منزله فلم يخرج منه الاميتا[21] فلما مات خلفه أسعد أباه على ديوان الجيش، وتصدّر فيه مدة طويلة، وأضيف إليه في الأيام الصلاحية والعزيزية ديوان المال، وهو أجلّ ديوان في مصر[22].

سادسا :وظائف ابن مماتي

إن ابن مماتي تولى رئاسة ديوان الجيش بعد وفاة والده سنة 577هـ/ 1181م[23] أسوة بالنصارى الذين كانوا يشتغلون في وظائف حسابية في دواوين الخلافة[24] أن نشاط ابن مماتي وكفائتة التي يتمتع بها دفعت السلطان صلاح الدين أن

يوكل إليه ديوان المال بالإضافة إلى ديوان الجيش[25] وبما أن ديوان بيت المال هو من أهم الدواوين[26] في الخلافة الأيوبية حيث أن تقليد ابن مماتي لهذا الديوان كان لشهرته وأمانته . وقد استمر في وظيفته حتى سنة 580هـ/1184م وقد عزل عنها بسبب نقص حصل في ميزانية الدولة[27]. وتولى ديوان الجيش بعده القاضي عبد الجبار المقدسي[28] لكن السلطان صلاح الدين قد أعاده إلى ديوان الجيش لحاجته إليه وكفائتة وعلاقة ابن مماتي بالقاضي الفاضل الذي توسط لدى صلاح الدين من اجل إعادته إلى وظيفته[29] لقد عزل ابن مماتي ثلاث سنوات ثم عاد بعدها ابن مماتي ليمارس دوره الإداري والمالي لكن الحال لم يستمر طويلا حتى عزل مرة أخرى وهكذا كان ابن مماتي غير مستقر في حياته الوظيفية والمناصب التي تسلمها .وفي عام 592م /1199م تولى العمل في ديوان النظر العام ولان عمال الصدقات لم يقوموا بعملهم بشكل مرضي وتجاوزهم على هذه الصدقات فقد استطاع ابن مماتي ان يعيد الأمور إلى وضعها السابق[30] وقد عزل بعد عام 597هـ حيث لم يستطيع معالجة هذا العزل بسبب الخلاف الذي وقع بينه وبين الوزير ابن شكر الأمر الذي دفعه إلى الهجرة من مصر إلى حلب وذلك سنة 604هـ/1207م ولم يحصل بها على أي منصب إداري حتى وفاته ومات فقيرا[31].

وفاته :

وكانت نهاية حياة الأسعد نهاية درامية حزينة، حيث اصطدم بالوزير ابن شكر، وكانت بينهما عداوة قديمة أيام كان الأسعد رئيسا لابن شكر الذي لم ينسها له، فلما تمكن من الأسعد دبر له المؤامرات، في عهد السلطان العادل سيف الدين ابي بكر (596- 615هـ/1199- 1218م)، وأوقعه في ورطة مالية وطالبه بسدادها، ولم يلتفت إلى اعتذارته، وضيق عليه، حتى اضطر الأسعد للاختفاء في مصر نحو عام بعيدا عن عيون الوزير الحقود، ثم هرب إلى حلب حيث عاش في كنف الملك الغازي حتى وفاته فيها في جمادي الاولى عام 606هـ/ 1209م وعمره انذالك اثنان وستون عاما [32].

المبحث الثاني: نشأته العلمية

أولا: شيوخه

1. والده

لقد نشأ ابن مماتي في أسرته التي جمعت من الغنى والثقافة ، فقد عني والده به فكان يأخذه معه الى الديوان لكي يعلمه الكتابه جريا مع الطبيعة السائدة زمن الدولة

الفاطمية وهناك تعلم الادب الأدب والتاريخ واللغة [33]، وشيءً من فنون الادارة علاوة على ماكان يتعلمه من والده في البيت ومايشهده من مجالس الادب والشعر التي كانت تعقد في دارهم حيث كان يقصدها كبار الشعراء والأدباء كالقاضي الفاضل والعماد الاصبهاني وغيرهم ، فكان لهذه المجالس إضافة إلى الرغبة الذاتية اثر كبير بنبوغه . ومما زاد في ثقافته وسعة معارفه اعتناقه الاسلام حيث تسنى له ان يدرس العلوم الإسلامية فتعلم القران واخذ يحضر مجالس الوعظ وحلقات الدرس التي كانت تعقد في القرافة [34].

2. ابي طاهر السلفي : وهو الحافظ ابو طاهر احمد بن احمد بن محمد بن ابراهيم السلفي الاصبهاني واحد من كبار علماء الحديث والقراءات في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي ، اتخذ من الاسكندرية مقرا لنشاطه العلمي وقد اكسبها شهرة كبيرة طوال تدريسيه، وبقي هناك الى ان وافاه الاجل سنة 576هـ / 1180م وقد ترك مؤلفات كثيرة تعدت العشرين اشهرها كتابه المعروف (معجم السفر)[35].
3. الفقيه محمد بن يوسف الغزنوي :هو محمد بن يوسف بن علي الغزنوي ، ولد سنة 522هـ/1128م ،واحد من الفقهاء والقراء المعروفين في مصر في القرن السادس الهجري توفي سنة 599هـ/1202م [36] درس على يديه الفقه والشريعة وتمكن ابن مماتي من استيعاب بعض علوم عصره فالف فيها[37].
4. القاضي الفاضل هو القاضي الفاضل: أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف بهاء الدين[38] أبي المجد علي بن القاضي السعيد أبي محمد[39] الحسن بن الحسين بن أحمد بن الفرج بن أحمد[40] اللخمي البيساني[41] العسقلاني[42]، الملقب مجير الدين وقيل محيي الدين[43]، ولد في بيسان وقيل عسقلان[44] سنة 529هـ، نشأ بمصر وتعلم واشتغل بالدرس والأدب والرسائل، تحدث عن صباه وطلبه للعلم بمصر، فقال: (أرسلني والدي وكان إذ ذاك قاضياً بثغر عسقلان إلى الديار المصرية في أيام الحافظ –وهو أحد خلفائها– وأمرني بالمسير[45] إلى ديوان المكاتبات، وكان الذي يرأس به في تلك الأيام رجلاً يقال له ابن الخلال، فلما حضرت الديوان ومثلت بين يديه وعرّفته من أنا وما طلبي رحب وسها ثم قال: ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات، فقلت: ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن وكتاب الحماسة، فقال: في هذا بلاغ، ثم أمرني بملازمته)[46] ، فكأن ابن الخلال كان يرى أن أهم الآلات في تعلم الإنشاء والكتابة هي حفظ القرآن وحفظ شعر

الحماسة، ثم محاولة الاستعانة بهما بالاقتباس والتقليد وحل المنظوم التي أصبحت فيما بعد أهم عناصر كتابة القاضي[47] .ونتيجة للاجتهاد ابن مماتي الامر الذي قربه من القاضي الفاضل فحفه برعايته[48] وقدم له ما يعزز من مكانته وسمعته بل اصبح هو الذي يقوم برعايته وتشجيعه بل اصبح بقيم كتبه ومؤلفاته التي صنفها ابن مماتي ومن ابرز الامثله فقد الف كتاب وسماه الشيء بالشيء يذكر وبعد ان قرائه القاضي الفاضل غير اسمه وسماه سلاسل الذهب[49] ومن جهه اخرى فقد رعى القاضي الفاضل ابن مماتي في مجال الشعر وكان معجبا بشعره حيث كان يطلق على ابن مماتي بلبل المجلس لشاعريته وحسن ادائه[50].

ثانيا : رحلاته

1. رحلته إلى الإسكندرية وذلك حين شعر بحاجته لدراسة الحديث ترك القاهرة إلى الإسكندرية لدراسة الحديث والفقه والعلوم الإسلامية الأخرى والفكر الاسلامي[51].
2. رحلته الى بلاد الشام : حين كثرت المؤامرات سنة (596-615هـ) واود بمركزه وماله وادت الى هروبه فقيرا ذليلا الى ماوراء الحدود المصرية في الشام حيث قضى بقية حياته في حلب ومات بها في جمادي الاولى عام 606 هـ[52].

المبحث الثالث : مكانته العلمية

أولا:أراء العلماء فيه

1. **يقول ياقوت الحموي تحت عنوان ((اسعد بن المهذب بن ابي مليح مماتي))** ما نصه :((احد الرؤساء الاعيان الأجلاء ، والكتاب الكبراء المنزلة ،ومن تصرف في الاعمال ، وولي رياسة الديوان ،وله ادب بارع ،وخاطر وقاد مسارع ،وقد صنف في الادب وعرف ،ومات بمدينة حلب في ثامن عشر جمادي الاولى سنة 606هـ))[53].
2. **يقول ابن خلكان في ابن مماتي :**_(الأسعد ابن مماتي، القاضي الأسعد أبو المكارم أسعد بن الخطير أبي سعيد مهذب بن مينا بن زكريا بن أبي قدامة ابن أبي مليح مماتي المصري الكاتب الشاعر كان ناظر الدواوين بالديار المصرية وفيه فضائل وله مصنفات عديدة ونظم سيرة السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى ونظم كتاب كليلة ودمنة وله ديوان شعر رأيته بخط ولده ونقلت منه مقاطع فمن ذلك قوله:

تعاتبني وتنهي عن أمور سبيل الناس أن ينهوك عنها
أتقدر أن تكون كمثل عيني وحقك ما علي أضر منها

وله في شخص ثقيل رآه بدمشق

حكى نهرين ما في الأرض مــن يحكيهمـــا أبدا
حكـــى في خلقـــه ثـــورى وفـــي أخلاقـــه بردى

وقد أخذ ابن مماتي معنى بيتيه هذين من قول بعضهم

ضاهى ابن بشران مدينة جلق فكلاهمـــا يـــوم الفخار فريد
ألفاظـــه بـــردى وصورة خلقه ثورى ونقص العقل منه يزيد

وله من جملة قصيدة طويلة [54]:

لنيرانـــه فـــي الليـــل أي تحـــرق على الضيف إن أبطا وأي تلهب
وما ضر من يعشو إلى ضوء ناره إذا هـــو لـــم ينـــزل بآل المهلب

وله في غلام نحوي:

وأهيـــف أحـــدث لـــي نحوه تعجبـــا يعـــرب عـــن ظرفـــه
علامـــة التأنيـــث فـــي لفظـــه وأحـــرف العلـــة فـــي طرفـــه[55]

ومن شعره ثلاثة أبيات مذكورة في ترجمة يحيى بن نزار المنبجي في حرف الياء وفي شعره أشياء حسنة وذكره العماد الأصبهاني في كتاب الخريدة وأورد له عدة مقاطيع ثم أعقبه بذكر أبيه الخطير وذكر كثيرا من شعره فمن ذلك قوله في **كتمان السر وبالغ فيه**

وأكتـــم الســـر حتى عن إعادته إلـــى المسر به من غير نسيان
وذاك أن لسانـــي ليـــس يعلمـــه سمعي بسر الذي قد كان ناجاني

وقال لقيته بالقاهرة متولي ديوان جيش الملك الناصر وكان هو وجماعته نصارى فأسلموا في ابتداء الملك الصلاحي، وللمهذب ابن الخيمي في الأسعد ابن مماتي المذكور يهجوه :

وحديث الإسلام واهي الحديث باسم الثغر عن ضمير خبيث
لو رأى بعض شعره سيبويه زاده فـــي عـــلامـــة التأنيـــث

وكان الحافظ أبو الخطاب ابن دحية المعروف بذي النسبين رحمه الله تعالى عند وصوله إلى مدينة إربل ورأى اهتمام سلطانها الملك المعظم مظفر الدين ابن زين الدين ﷺ بعمل مولد النبي حسبما هو مشروح في حرف الكاف من هذا الكتاب عند ذكر اسمه صنف له كتابا سماه التنوير في مدح السراج المنير وفي آخر الكتاب قصيدة طويلة مدح بها مظفر الدين أولها[56]

لـــــولا الوشـــاة وهم أعداؤنا ما وهموا

وقرأ الكتاب والقصيدة عليه وسمعنا نحن الكتاب على مظفر الدين في شعبان سنة ست وعشرين وستمائة والقصيدة فيه ثم بعد ذلك رأيت هذه القصيدة بعينها في مجموعة منسوبة إلى الأسعد ابن مماتي المذكور فقلت لعل الناقل غلط ثم بعد ذلك رأيتها في ديوان الأسعد بكمالها مدح بها السلطان الملك الكامل رحمه الله تعالى فقوي الظن ثم إني رأيت أبا البركات ابن المستوفي قد ذكر هذه القصيدة في تاريخ إربل عند ذكر ابن دحية وقال سألته عن معنى قوله فيها :

يفديه من عطا جمادي كفـــــه المحرم

فما أحار جوابا فقلت لعله مثل قول بعضهم ، تسمى بأسماء الشهور فكفه جمادي وما ضمت عليه المحرم .

قال فتبسم وقال هذا أردت فلما وقفت على هذا ترجح عندي أن القصيدة للأسعد المذكور فإنها لو كانت لأبي الخطاب لما توقف في الجواب وأيضا فإن إنشاد القصيدة لصاحب إربل كان في سنة ست وستمائة والأسعد المذكور توفي في هذه السنة كما سيأتي وهو مقيم بحلب لا تعلق له بالدولة العادلية وبالجملة فالله أعلم لمن هي منهما وكان الأسعد المذكور قد خاف على نفسه من الوزير صفي الدين بن شكر فهرب من مصر مستخفيا وقصد مدينة حلب لائذا بجناب السلطان الملك الظاهر رحمه الله تعالى وأقام بها حتى توفي في سلخ جمادي الأولى سنة ست وستمائة يوم الأحد وعمره اثنتان وستون سنة ﷺ ودفن في المقبرة المعروفة بالمقام على جانب الطريق بالقرب من مشهد الشيخ علي الهروي وتوفي أبوه الخطير في يوم الأربعاء سادس شهر رمضان من سنة سبع وسبع وخمس ماية [57].

3- العماد الاصبهاني

يصفه الاصبهاني بانه شاعر على مستوى عال ومتمكن من الادب وذو اسلوب ساحر وبعده واحد من كبار شعراء مصر في القرن السادس الهجري [58].

ثانيا:مؤلفاته

وعلى الرغم من أن الأسعد قضى نحو نصف عمره في المناصب الإدارية الكبيرة فإنها لم تشغله عن التأليف في التاريخ والأدب والفقه واللغة، وقد ذكر له ياقوت الحموي أكثر من عشرين كتاباً:

1. كتاب لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة [59].
2. كتاب (حجة الحق على الخلق في التحذير من سوء عاقبة الظلم)، وكان السلطان صلاح الدين الأيوبي يكثر النظر فيه، كما كان القاضي (الفاضل) معجبا به،

ويقول عنه: (إنه والله من أهم ما طالعه الملوك) وكان بين القاضي الفاضل والأسعد بن مماتي مودة قريبة وصلة حميمة، وتقدير متبادل.

3. (نظم السيرة الصلاحية)، أو سيرة صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي أهداه الأسعد للملك الظاهر ابن صلاح الدين[60].
4. وكتاب (الفاشوش في أحكام قراقوش)[61].
5. وكتاب (الشيء بالشيء يذكر)[62].
6. وكتاب (تلقين اليقين في الكلام على حديث بني الإسلام على خمس) [63].
7. وكتاب (سر الشعر)[64].
8. وكتاب (علم النثر)[65].
9. وكتاب (باعث الجلد عند حادث الولد) [66].
10. وأهم ما خلفه الأسعد بن مماتي هو كتابه (قوانين الدواوين)[67].
11. كتاب تهذيب الأفعال [68].
12. كتاب قرقرة الدجاج في الفاظ ابن الحجاج [69].
13. كتاب ملاذ الافكار وملاذ الاعتبار[70].
14. كتاب اخاير الذخاير [71].
15. كتاب كرم النجار في حفظ الجار[72].
16. كتاب ترجمان الجمان [73].
17. كتاب مذاهب المواهب [74].
18. كتاب قرص العتاب[75].
19. كتاب طريق الطليق[76].
20. كتاب زواهر السدف وجواهر الصدف[77].
21. كتاب الحظ على الرضا بالحظ[78].
22. كتاب درة التاج [79].
23. ميسور النقد [80].
24. المنتحل [81].
25. اعلام النصر [82].
26. خصائص المعرفة في المسميات [83].

ثالثاً: شعره ونثره

أحد الكتاب في الديوان الفاضلي، ذو الفضل الجلي، والشعر العلي، والنظم السوي، والخاطر القوي، والسحر المانوي، والروي الروي، والقافية القافية أثر الحسن، والقريحة المقترحة صورة اليمن، والفكرة المستقيمة على جدد البراعة، والفطنة المستمدة من مدد الصناعة. شابٌ للأدب رابٌّ، وعن الفضل ذابٌّ؛ وهو من شملته العناية الفاضيلة، وحسنت منه البديهة والروية: اجتمعت به في القاهرة وسايرني في العسكر الناصري وأنشدني من نظمه المعنوي، ما ثنيت به خنصر الاستحسان، وأذنت لجواده في الإجراء في هذا الميدان. واثبت منه كل ما جلا وحلا، وأشرق في منار الإحسان وعلا، وراج في سوق القبول وغلا. فمن قوله

لو رأى بعضَ شِعْره سيبَويَه زاده في علامة التأنيث[84]

من شعره أيضاً من الوافر:

تُعاتِبني وتَنْهَى عن أمــورٍ سبيلُ الناس أن يَنْهَوك عنها
أتقدر أن تكون كمثل عيني وحقّــك مــا عليَّ أضرُّ منها

وله من قصيدة من الطويل[85] :

لنيرانـــه فـــي الليــل أيُّ تخرُّقٍ على الضيف إن أبطا وأيُّ تلهُّب!
وما ضَرَّ مَن يَعشو إلى ضوءِ ناره إذا هــو لــم ينــزل بآل المُهلَّب!

ولما وقع الثلج في حلب سنة خمس وستمائة قال عدة مقاطع في ذلك منها من البسيط:

قــد قُلــتُ لمّا رأيتُ الثلجَ مُنبسطاً على الطريق إلى أن ضلَّ سالكهُا
ما بيَّض الله وجه الأرض في حلبٍ إلاّ لأنّ غيــاثَ الديــن مالكُها

ومنها من الرجز:

لمّا رأيتُ الثلج قد غَطّى الوِهادَ والقنُنْ
سألتُ أهل حلبٍ: هل تُمطِرُ السمّا لَبَنْ؟

ومن شعره من السريع[86] :

وأهْيفٍ أحدثَ لي نحوه تَعَجبُّاً يُعرب عن ظرفهِ
علامةُ التأنيث في لفظه وأحرف العلةّ في طرفه

ومن شعره من الكامل:

وحياة ذاك الوَجه بل وحياته قَسَمٌ يُريك الحُسْنَ قَسماته
لأُرابِطنَّ على الغَرامِ بثغــره لأفوز بالمرجُوِّ من حسنَاته

وأُجاهِدَنَّ عواذِلي في حبُّهِ بالمرْهَفات عليَّ من لحظاته
قد صيغَ من ذهبٍ وقُلِّد جوهراً فلذاك ليس يجوز أخذُ زكاته

ومنه دوبيت من الرمل:

يا غُصْنُ أراك حاملاً عُودَ أراكْ حاشاك إلى السِّواك يحتاج سِواكْ
قُلْ لي أنَهاك عن محبِيّك نُهاك لو تـمَّ وفاك بُستُ خدَّيك وفاك

وقال مهذب الدين ابن الخيمي يهجو أسعد بن مماتي من الخيف:

وحديثِ الإسلام واهي الحديث ... باسِمِ الثغرِ عن ضميرٍ خبيثِ يصف الخليج يوم فتحه بالقاهرة:

خليجٌ كالحسام له صِقَـالٌ ولكن فيه للرائي مَسَرَّهْ
رأيت به المِلاحَ تجيدُ عوماً كأنهمُ نجومٌ في المجرَّهْ

وقوله في غلام نحوي:

وأهيفٍ أَحدثَ لي نحوُهُ تعجباً يُعْرِبُ عن ظَرْفِهِ
علامة التأنيثِ في لفظه وأَحْرُفُ العلة في طَرْفِهِ

وقوله في غلام خياط[87]:

وخَيَّاطٍ نظرتُ إليـــه مفتونـــاً بنظرتِـه
أسيـل الخـدِّ أَحمره بقلبـي مـا بوجنته
وقد أمسيتُ ذا سَقَـــم كأنـي خيـط إبراه
وأحسدُ منه ذاك الخيط فازَ بـرِيِّ رِيقتـهِ

قال: هذا البيت الأخير للسديد أبي القاسم الكاتب. ولابن مماتي هذا في قصيدة عملها هذا السديد لاميةٌ مفيدة أوردتها في شعره:

تبكي قوافي الشعر لاميةً بَيَّضْتَهَا من حيث سَوَّدْتَهَا
لما علا وسواسُ ألفاظها ظننتَهـا جُنَّـتْ فقيدْتَهَـا

وقال:

أراكمُ كحباب الكأسِ منتظماً فما أرى جمعكمْ إلا على قَدَحِ

وقال:

لقد مرَّ لي في مصرَ يومٌ وليلةٌ هما في مُحَيَّا الدهرِ كالسِّحْر في الطَرْفِ
وما فيهما واللّه عيبٌ وإنمـــا تولاهمـا عُجْـبٌ فذابـا مـن الظَّرْف

وقال:

ما صرت أَجسرُ أن أبكي لفرقتهمْ لأنهـم زعمـوا أن البكا فَرَجُ

وقال:

أحبابَنا والذي يقضي بأُلفتِنَا بعد الفراق ويُخْلِينَا من الفَرَق
ما زلتُ أخبط في عشواءَ مظلمةٍ من بعدكمْ وأبيعُ النومَ بالأرق
حتى ثويتُ بنارِ الشوق في حُرَقٍ وصرت أُشْرِفُ من دمعي على الغَرَق
فمتعوني ولو ليلاً بطيفكمُ ما دمتُ أقدرُ من روحي على رَمَق

وقال في ذم العذار[88]:

إذا طلــع العــذارُ فقــد فقــدنــا لذاذةَ عيشنـــا الأَرِجِ البهيــج
لأَنَّ الغصــنَ لا يخضــرُّ حتـــى يصيــرَ بأصلــه مثــلُ الوشيج

وقال يصف البق:

تكاد بقرصِ البقِّ تتلــفُ مهجتــي إذا لم أُجِدْ من ثوب جلدي التخلُّصَا
ومن أعجب الأشياءِ في البقِّ أنها على الجسم سُمَّاقٌ وتُنبِتُ حِمَّصَا

ونزلنا ببركة الجب لقصد الجهاد، وعرض الأجناد، فكتب الأسعد ابن مماتي إلي أبياتاً في الملك الناصر، وتعرض للشطرنج فإنه كان يشتغل به في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين:

يا كريمَ الخِيم في الخَيــمِ أهيفٌ كالرئم ذو شمـــم
عَجَبي للشمس إذ طلعتْ منه في داجٍ من الظُّلَــم
كيف لا تُصْمي لواحظــه ورماةُ الطرف في العجم
لا تصدْ قلبَ المحب لكــم ما يحلُّ الصيدُ في الحَرَم
يا صلاحَ الدين يا ملكــاً مــذ بــراهُ اللّه للأُمَــم
أضحتِ الكفارُ فــي نِقِــمٍ وغــدا الإسلامُ في نِعَــمِ
إن يكُ الشِّطْرِنْج مشغلــةً للعليِّ القــدْرِ والهمـــم
فهْــيَ فــي ناديك تذكرةٌ لأمورِ الحــرب والكــرم
فلكــم ضاعفــتَ عِدَّتَهــا بالعطاءِ الجــمِّ لا القلــم
ونصبت الحرب نصبتهــا فانثنتْ كفّــاك بالقمـــم
فابــقَ للإســلام ترفَعُــهُ وَأُمُرِ الأقــدارَ كالخــدم

وقال في الملك الناصر[89]:

إن كنــتَ تنكــر ما أقــولُ فالسهدُ يشهدُ والنحولُ
وهما لديــك مــن العــذو لِ فكيف يمكنك العدول
يا صعدةً أنفاســيَ الــصُّ عَــداءُ منهــا والذبولُ

ومهنداً في القلـــب منـــ ـــه على محبته فلـــولْ
إن كثَّرَ الواشون فـــيـــ ك ففي شمائله الشَّمُول
أو صرت معتزلـــيْ فـــإنَّ الفكـــرَ يُعجبـــه الحلولُ
إنَّ الغزالـــــةَ كالغـــــزا ل وكالنفـــورِ هو الأُفول
فإلامَ لا يَشْفـــي الغلـــي لَ بـــزورةٍ منـــك العليل
والصبرُ أَقصر ما يكـــــو ن إذا الصدودُ بدا يطول
كم حِيلَ بيـــن تجلُّـــــدي والقلب إذ حضر الرحيل
وهَمَـــتْ جفوني بالنجيع كأنمـــا طرفِـــــي قتيـــل
فاعجب لدمعٍ كيف يظهرُ والنفـــوس بـــه تسيـــل
يا قاضيـــاً بهـــواه فـــيَّ وذلـــك الـــدَّلُّ الدليـــــل
فيـــك الجمـــالُ كما مليكُ زمانِنـــَا فيـــه الجميـــــل
الناصرُ الملك الـــرؤوفُ الأروعُ الـــوَرِعُ المُنِيـــلُ
مَلِكٌ إذا عَصَتِ الحصونُ ســـواه كان له الحصول
حَسْبُ العساكِـــر والعِدا أَن النّصـــولَ به تَصُولُ

وأنشدني لنفسه من قصيدة[90]:

كيف واصلتَ قطعَ رشفِ رُضابهْ وبدا السخطُ منك بعد الرِّضَى به
وهجرتَ المنام كي يرجعَ الطيفُ لئلا ترقَّ عند عتابه
لَتَوَخَّيْتَ أَنْ ترى صورةَ الصبر عليه من قبلِ حينِ ذهابه
ولعمري لقد أسأْتَ به الظنَّ فَعُذِّبْتَ باجتنابِ عذابه

وقال في متهم الخلوة:

اختصرْ واقتصرْ على هُزْئك الناسَ ولا تدّعي الحِجَى والكتابهْ
واحتسبْ وانتصبْ لضرب نِعالٍ دامغاتٍ من أجل سبِّ الصحابه
واقتصدْ في البغاء يابن فعالٍ وتوقَّ انتصابه والتهابه
فهو داءٌ كما تقولُ ولكن أنت صَبٌّ برشف تلك الصُّبَابه

وقال في مدح الأجل الفاضل من قصيدة:

لا تلم في اضطرابنا لاحمرارهْ	جُلّ نار القلوب من جُلّناره
وهو حدٌّ يكاد يُقْبَضُ منه	كل طَرْف لولا اعتذارُ عِذاره
ما رأى منكراً رُضابَ مدامٍ	مذ روى طرفه حديثَ خُمَارِه
ليس فيه من راحةٍ لمريدٍ	قبلة تُطْفِىءُ اضطرام اضطراره
غير أن الحياءَ فيه مُضَاهٍ	للحَيَا في انهماله وانهماره
أوْجَدَا الفاضلِ الذي أوجد الجود	فمن كفِّهِ انفجارُ بحاره
ذلك السيدُ المشَيِّدُ للمجدِ	إلى أن أَتى على إيثاره
من غدا الدهرُ باسمه باسمَ الزهرِ	ضحوكاً به بهارُ نهاره
لم يطفنا من برِّهِ وردَ وعدٍ	لم يَشِنْهُ انتظامُ شوكِ انتظاره

ومن نور نثره البديع[91]، ونور فجره الصديع، وغرر درره النصيعة، ودراري غرره الصنيعة، ما تحذى له بهائم التمائم، وتحدى به كرائم المكارم، ويربع الحسن في روضه، وتكرع الحسناء في حوضه، وتغتبط الآداب بدابه، وترتبط الألباب ببابه، من مكاتبة: فصلت عنه في أخريات النهار، وقد ظهر في أطراف الجدران لفرق فراق الشمس اصفرار، فلما ذهب ذهب الأصيل بنار الشفق، ولبست المشارق السواد لما تم في المغارب على الشمس من الغرق، وأقبلت مواكب الكواكب في طلب الثأر، كدراهم النثار، وتشابهت زواهرها وإن اختلفت في الأشجان بالأزهار في الأشجار، وتكلف القمر الموافقة فظهر على وجهه الكلف، ومرت به طوالع النجوم فلم يستخبرها حسداً فأعرب عن غدر الخلف بالسلف، وظهر الوجوم في وجوه النجوم، وعيل صبر النسرين فواحد طائرٌ يحوم، وآخر واقع لا يقوم، ولم تزل متلاحقةً متسابقةً لتقفو الأثر وتسمع الخبر، إلى أن بدا سوسن الفجر ولاح، وابتسم ثغر الصباح عن الأقاح، وكاد ثعلبه يأكل عنقود الثريا، وبرزت الغزالة من أس الكناس طلقة المحيا، وتراءت الوجوه، وزال ما زال بغيبتها من المكروه، وأخذت النجوم بالحظ من الطرب، بمقدار ما قدمته من الحض في الطلب، وانخرطت في سلوك شعاعها نظاماً، وزاد خوفها منها على رجائها فيها فذابت إكباراً لها وإعظاماً[92].

المبحث الرابع: ابن مماتي وكتاب الفاشوش في حكم قراقوش

من هو قراقوش ؟

بعد وفاة شيركوه انضمّ جنده وعساكره (الأسدية) إلى عسكر ابن أخيه الملك الناصر صلاح الدين، وكان من بينهم القائد قراقوش الذي ساهم في حفظ ثروة آخر خليفة فاطمي بعد وفاته وهو العاضد عام 567 هـ. وقدّمها تامة إلى صلاح الدين،

وكانت ذات أثر في تثبيت دعائم الدولة وبناء بعض تحصيناتها الهامة التي كلّف قراقوش بتنفيذها. وكان قراقوش بين الأسرى، وظل أسيراً حتى دخلت سنة 588هـ وفيها افتداه صلاح الدين بفدية عظيمة تراوح تقديرها ما بين عشرة آلاف وستين ألف دينار، واستقبله صلاح الدين بطبرية بالبِشْر والبر ثم صحبه معه إلى دمشق، ثم أرسله إلى مصر وكانت هذه أخرَ مرّة يرى فيها قراقوش صلاحَ الدين الذي توفى في صفر سنة 589هـ بدمشق.

كتاب الفاشوش في حكم قراقوش

يأخذ كتاب الفاشوش في حكم قراقوش أهميته من مؤلفه الأسعد بن مماتي (ت606 هـ/ 1209 م)، وفضلاً عن إسهاماته الإدارية، كان الأسعد بن مماتي كاتبا معروفا وأديبا مشهورا، شهد له بذلك كبار رجال الأدب في عصره أمثال القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني، وابن سناء الملك وغيرهم، وعرف بغزارة إنتاجه العلمي، إذ تعدت مؤلفاته الثلاثين مؤلفًا، توزعت بين الأدب والدين والشعر والإدارة والتربية والتاريخ، إضافة إلى، تلقين التفنن، وسر الشعر، وسيرة السلطان صلاح الدين، وملاذ الأفكار وملاذ الاعتبار، وطريق الطليق، وترجمان الجمان، وقوانين الدواوين، وقرقرة الدجاج في ألفاظ ابن الحجاج، والمنتحل، والنهاية في شرح الهداية، وخلاصة في الفروع، وباعث الجلد عند حادث الولد،والحض على الرضا بالحظ، والفاشوش في حكم قراقوش، كما عرف عن هذا الوزير سرعة البديهة والطرفة واللذع في النادرة، وقد عكست بعض مؤلفاته ذلك أيضا،ولعل عناوين بعضها يؤكد ذلك[93] وتأتى أهمية كتاب الفاشوش من موضوعه الذي يدور حول شخصية قراقوش الذي يمثل وزير الحرب لدى السلطة الأيوبية، واسمه الكامل هو بهاء الدين بن عبد الله الاسدي، وهو في الأصل من آسيا الصغرى رومي النسب، سمي بالأسدي نسبة إلى اسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين الأيوبي، أما عن لقبه قراقوش فيعني باللغة التركية النسر الأسود. وحين قامت الدولة الأيوبية قربه السلطان صلاح الدين، وجعل منه قائدا عسكريا كبيرًا. وبعد وفاة السلطان صلاح الدين خدم لدى ابنه السلطان العزيز، ولفترة قليلة لدى السلطان العادل، بعدها توارى قراقوش في الظل حتى وفاته سنة 597هـ / 1200 م[94].

الفاشوش في حكم قراقوش ، واحد من مؤلفات الوزير الأيوبي أسعد بن مماتي، وهو كتاب يدور موضوعه في الظاهر حول الأمير بهاء الدين قراقوش أحد أمراء الحرب البارزين في الدولة الأيوبية ،إذ وصفه بالظالم الجائر وعديم الفائدة والدراية في الأمور الإدارية، وافتقاره للذكاء الميداني في مواجهة لأزمات، فضلا عن نعته

بالخلق السيئ، وهو وصف جاء بأسلوب فكاهي ساخر ممزوج بالنادرة، بدا خلاله قراقوش شخصية قلقة أحمق التفكير، مغفل الطباع، متناقض الأقوال، ومضحكا في أفعاله. وسنذكر عددًا من حكايات الفاشوش اخترنا اثنين منها :

الحكاية الثالثة التي تقول:

((قيل إن امرأة أتت بولدها إلى قراقوش فقالت : يا سيدي بهاء الدين إ ن ولدي يشتمني ، فأمر بحبسه سنة ، فلم تذق أمه تلك الليلة طعم النوم ،فلما أصبحت راحت إلى السجانين وقالت : ما الحيلة في خلاص ولد ي من هذا الحبس ؟ فقالوا لها: هاتي حلاوتنا ورفع (أي شيء) تقولين للأمير بهاء الدين قراقوش . فدفعت إليهم النقود، وقالوا الها: روحي الساعة إلى الأمير، وقولي له: يا سيدي أنا امرأة حبست لي ولد ي سنة كاملة ، وقد انقضت السنة ، فاخرج لي ولدي من الحبس ، فأتت المرأة إلى الأمير قراقوش، فقالت له ذلك فقال لها: روحي ألان ، فلا جدال في انه قد بقي له من السنة سبعة أيام سوى أمس وغد .فمضت المرأة وأعلمت السجانين ، فقالوا لها: هذه نعمة فإذا كان الغد فروحي إليه وقولي له : انقضت سبعة الأيام فأصبحت المرأة وجاءت إلى قراقوش ، فلما نظر إليها قال : يا امرأة حتى تغرب الشمس ! يا غلام : إذا غربت الشمس ! فأطلق لها ولدها من الحبس . ولا ترجعي تجيبيه ، أو(يحبسوه سنتين!))[95]

الحكاية الخامسة

((قيل إن غلاما لقراقوش كان يشتغل عنده ركابدار (أي صاحب الركاب)، وان هذا الغلام قتل نفسا . فقال: اشنقوه ! فقيل له : انه حدادك وينعل لك الفرس، فان شنقته خسرته ولم تجد غيره . فنظر قراقوش ناحية بابه ، فوجد رجلا قفاص (أي صانع أقفاص) ، فقال: ليس بهذا القفاص حاجة! فلما أتوه به قال : اشنقوا القفاص. وسيبوا الركابدار(الحداد لكي ينعل لنا الفرس!))[96] بعد هذا العرض لمجموعة من حكايات الفاشوش يبرز السؤال الآتي:لماذا كتب ابن مماتي الفاشوش؟

يقول ابن مماتي عن الدافع وراء كتابته للفاشوش هو: ((إني لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش محزمة {ما يحزم به } فأشوش {الأحمق } وقد اتلف الأمة، والله يكشف عنهم كل غمة، لا يقتدي بعالم ، ولا يعرف المظلوم من الظالم، الشكية عنده لمن سبق، ولا يهتدي لمن صد ق ، ولا يقدر أحد عظم منزلته على أن يرد كلمته، ويشتاط أشتياط الشيطان ، ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان، صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين))[97] وهو قول يفهم منه أن الشعور بالوطنية والمسؤولية تجاه الدولة والرعية كان وراء تصدي ابن مماتي لذلك الأمير، لأنه يرى أن

شخصية قراقوش القلقة كانت تقود الدولة إلى خراب ، لاسيما وأنها تمر بظرف سياسي وعسكري حرج، إذ إنها كانت تخوض الصراع ضد الصليبيين . وبعد استقراء المدة التي عاش أحداثها بهاء الدين قراقوش ، وجد أن الصورة التي عكسها الفاشوش تتقاطع تما ما مع ما سجله التاريخ عن قراقوش ، فهي تناقض صورة الأخير لدى السلطة الأيوبية ورجالاتها ،وتخالف تماما الصورة التي رسمها المؤرخون عن قراقوش ، وتتضارب مع الرؤية الصليبية تجاه الرجل ، وبخاصة لو وضعنا في الاعتبار أن الصليبيين هم أعداء للدولة الأيوبية التي يعد قراقوش واحدا من أمرائها الحربيين . وفيما يخص مكانته لدى سلاطينه ، كان قراقوش يتمتع بمكانة كبيرة وثقة عالية لديهم ، بل كان ضلعا في المثلث الإداري الذي ارتكزت عليه الدولة عند قيامها ، والذي مثل ضلعيه الآخرين القاضي الفاضل (ت 596 هـ/ 1199 م) والفقيه عيسى الهكاري[98]، فعند اعتلاء صلاح الدين (569- هـ/ 1193 م) عرش السلطنة جعل قراقوش أمينا على القصر الفاطمي المليء بالجواهر والتحف الثمينة وأشياء أخرى لا تقدر بثمن[99] كما اتخذه نائبا[100] له على البلاد أثناء غيا به[101]. وكان قراقوش يمثل وزير أشغال السلطان صلاح الدين ، إذ قام خلال تسلمه هذا المنصب بثلاثة أعمال شهد تاريخية بأهميتها وهي بناء قلعة الجبل، وتشييد سور القاهرة ، وترميم سو ر عكا ، فضلا عن أعمال كثيرة أخر ى [102]. وللمكانة العالية التي يكنها له السلطان صلاح الد ين نراه يفتديه بعشرة آلاف دينا ر، حين وقع أسيرا لدى الصليبيي أثناء أعادتهم مدينة عكا سنة 587 هـ / 1191 م[103]، وقيل ستين ألف دينار[104] ، وبعد وفاة السلطان صلاح الدين خدم لدى ولده السلطان العزيز (589هـ -595 / 1193م1198 م) الذي كان هو الآخر ينيبه على البلاد عند خروجه للقتا ل[105]، وهو أمر يدل على المكانة والثقة ا لعالية التي يكنها السلطان لقراقوش .وبالمقابل كان الأخير أهلا لهذه الثقة وللمكانة الرفيعة، وأمينا في خدمة السلطان، وانعكس ذلك من خلال إحباطه المؤامرة التي حاك خيوطها الملك العادل عم السلطان نفسه ، وذلك بالتعاون مع فرقة الممالي كالاسدية التي يشكل قراقوش جزءا منها[106] وهو أمر يعكس إخلاص قراقوش الكبير للدولة الأيوبية المتمثلة بالسلطان العزيز. ونظراً لمل يتمتع به من مزايا خاصة وقدرات عالية جعلت السلطان العزيز يسند إليه منصب شاد[107] الدواوين ، وذلك في ربيع سنة 592هـ/ 1195 م[108]، أما عن مكانته بين رجالات الدولة ، فالقاضي الفاضل الذي شغل منصب رئيس ديوان الإنشاء و تمتع بمكانة مرموقة في الدولة الأيوبية ، كان يمدح الأمير قراقوش في كل رسالة يمر ذكره بها[109] ، فضلا عن انه قاطع الاجتماع

الذي عقد من اجل البت في أمر أبعاد قراقوش عن وصاية الملك المنصور ، و حين طلب رأيه في ذلك امتنع[110] مدللا بذلك على مدى ما يكنه قراقوش من احترام وما يحظى لديه من مكانة عالية ، أما العماد الأصفهاني (ت597هـ/1201 م) المرافق للسلطان صلاح الدين في حملاته الحربية فكان يرى في قراقوش رجلا عالي الهمة ، لا يقارع ذا المواقف المعروفة والأعمال الجليلة[111] ، ويشاطرهم في رأيه هذا ابن شداد ت 632 هـ / 1234 م كاتم سر السلطان صلاح الدين أيضا[112] وكانت حياة الأمير بهاء الدين قراقوش حافلة بالإنجازات العظيمة والبطولات والإخلاص للإسلام والمسلمين خلال ملازمته القائد صلاح الدين الأيوبي وكذلك بعد وفاته مما جعله محط كيد الحاسدين وأعداء الإسلام والمسلمين [113] ومن الأعمال التي أسندت إليه وقام بها خير قيام من عمره . فلا شك انه قبل ذلك تلقى تعليماً عاماً ، وتدرب خاصتاً على الفروسية واعمال اخرى [114].

الخاتمة

1. لقد عاصر ابن مماتي منذ ولادته وحتى وفاته الدولتين الفاطمية والأيوبية وعاش معظم حياته في الدولة الأيوبية، ورغم التقلبات السياسية والاقتصادية والفكرية إلا إن ابن مماتي كان قد تقلد وظائف أساسية ومهمة مثل ديوان الجيش ثم ديوان المال وهو من اجّل الدواوين في مصر .
2. لقد عرف ابن مماتي بالكفاءة الإدارية المتميزة بل عرف أيضا أديبا وقد ألف المصنفات الكثيرة كونه أديبا لامعا وساخرا لما يتمتع به من قدر عالي في التأليف وأنجز فيها مجموعة كبيرة من المصنفات
3. اشار ابن مماتي عن الدافع وراء كتابته للفاشوش هو:إني لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش محزمة {ما يحزم به } فأشوش {الأحمق } وقد اتلف الأمة، ، صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين.

الهوامش والمصادر والمراجع

(1) بن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد (ت 681 هـ/ 1282م)وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، (بيروت ، بلا)ج 3،ص450؛ ابن العديم كمال الدين ابن ابي جرادة ،(ت، 660هـ)، بغية الطلب في تاريخ حلب تحقيق سهيل زكار ، دار الفكر ،(بيروت ، 1988)، ص121: ؛بن قاضي شهبة ، ابو بكر بن احمد(ت ، 851هـ/1447م) طبقات الشافعية تحقيق عبد الحافظ خان عالم الكتب ، (بيروت ،1407هـ)ج 7،ص243 ؛ ابن تغري بردي،ا بو المحاسن جمال الدين يوسف (ت، 874 هـ / 1470م)النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، (مصر ، بلا) ج6،ص 178 ،

(2) ابن خلكان، وفيات الاعيان ،ج،ص213

(3)العماد الاصبهاني ، محمد بن محمد حامد بن حامد(ت، 597هـ/1200م)خريدة القصر وجريدة العصر ، نشره احمد امين ،(القاهرة ، 1951م)،ج1 ، ص100، ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي: (ت626هـ/ 1229م)ارشاد الاريب الى معرفة الاديب المعروف بمعجم الادباء ، دار المشرق(بيروت ،بلا،) ج6 ،ص125،109

(4)العماد الاصبهاني ، الخريدة ،القسم المصري ،ج1 ، ص100؛ ياقوت الحموي ، معجم الادباء ، ج6 ،ص109؛ابن خلكان، وفيات الاعيان ،ج1، ص189؛ الصفدي ، صلاح الدين خليل الصفدي بن أيبك ، (764هـ/1263م)الوافي بالوفيات، تحقيق: وداد القاضي،(بيروت ،1402هـ) ،ج9 ،ص21

(5) المنذري ،زكي الدين ابو محمد عبد العظيم عبد القوي (ت،656هـ/1258م)تكمله لوفيات النقله ،تحقيق بشار عواد معروف ،ط2 ،(بيروت ،1981م) ج4 ، ص180 ؛ ابن كثير ، عماد الدين ابو الفداء الدمشقي (774هـ/1372م)البداية والنهاية في التاريخ ، مكتبة المعارف ، (بيروت ، بلا)، ج13 ، ص53؛ المقريزي، تقي الدين احمد بن علي (ت،845هـ، /1441م) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروفة بخطط المقريزية ،(القاهرة ، 1853م)،ج2 ، ص160؛ ابن فضل الله العمري احمد بن يحيى(749هـ/1349م) ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ، ألمانيا الاتحادية، 1988م)ج18 ، ص60

(6) حسين ، محمد كامل ،دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين (القاهرة ، 1957)ص68

(7) القفطي ، جمال الدين ابو الحسن (ت، 646هـ/1248م)انباء الرواة على انباء النحاة : تحقيق ابو الفضل ابراهيم ، (القاهرة ، 1950م)،ج1 ، ص234

(8) ابن بطوطة ،محمد بن ابراهيم اللواتي ، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، (رحلة بن بطوطة)تحقيق على الكتاني ، مؤسسة الرسالة ، (بيروت ، 1975) ، ج1 ، ص55

(9) البطليموسي ، عبد الله بن محمد ،(ت، 521هـ/1127م) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب ، تحقيق مصطفى السقا وحامد عبد المجيد ،(بغداد ، 1990) ، ص158

(10) المقريزي ، الخطط ، ج2 ، ص160

(11) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ،ج6 ، ص110 ، المقريزي ، الخطط ،ج2 ، ص160

(12) المنذري ، التكمله ، م2 ، ص180

(13) الوهراني، محمد بن محمد بن محرز (ت، 575هـ/ 1179م)،منامات الوهراني ومقاماته ورسائله ،تحقيق ابراهيم شعلان ومحمد نغش (القاهرة ، 1968) ،ص232

(14) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء، ج6 ، ص109

(15) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء، ج6 ، ،ص109

(16) محمد راغب الطباخ الحلبي، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء دار القلم العربي(حلب، 1992)ص24.

(17) القفطي ، انباء الرواة على انباء النحاة ،ج1 ،ص231

(18) الغيار هي الملابس التي تميز بها اهل الذمة في القرون الوسطى ، الشيزري ، عبد الرحمن بن نصر ، (ت، 589هـ/1193م) نهاية الرتبة في طلب الحسبة :تحقيق ،الباز العريني ،(بيروت ، بلا)ص106

(19) الزنار : حزام يشده المسيحي في وسطه تميزا له عن المسلم ، المصدر نفسه ، ص106

(20) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء، ج6 ، ص112؛ المقريزي ،: الخِطط ،ج2 ، ص123 ص 163

(21) ابن مماتي ،اسعد ،(ت،606ه/1209م) قوانين الدواوين ، حققه عزيز سوريال عطية ، مكتبة مدبولي ، (القاهرة، 1411هـ/1991م)ص13.

(22) ابن العماد الحنبلي ، أبو الفلاح عبد الحي (ت ، 1089هـ/ 1671 م)شذرات الذهب في اخبار من ذهب ،دار الكتب العلمية ، (بيروت ، بلا)،ج5 ،ص20

(23) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ،ج6 ، ص112 ،المقريزي ،الخطط ،ج2 ،ص160

(24) جاك تاجر ،أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ، تقديم الدكتور محمد عفيفي وسمير مرقس،، الهيئة المصرية للكتاب(مصر، 2010)،ص151

(25) الصفدي ، الوافي بالوفيات ،ج9 ، ص22

(26) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ،ج6 ، ص113

(27) أبن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت، 697هـ/1297م)مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحق: جمال الدين الشيال،)القاهرة، بلا)، ج2 ، ص428

(28)الصفدي ، الوافي بالوفيات، ج18 ، ص38

(29) الصفدي ، الوافي بالوفيات، ج18 ، ص38

(30) المقريزي ، الخطط، ج1 ، ص160

(31) ابن العديم ، بغية الطلب ،ج3 ، ص57

(32) المنذري ، تكمله لوفيات النقله ، ج4 ، ص180 ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ،ج13 ، ص53 ؛ المقريزي ، الخطط ، ج2 ، ص160 ؛ ابن فضل الله العمري ، مسالك الابصار ج18 ،ص60

(33) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ،ج3،ص158 .

(34) القرافه ،موضع بالقاهرة ، يحتضن بعض المراقد المقدسة وقبور الصالحين اضافة الى المساجد والزوايا والمدارس التي كانت تعقد فيها حلقات الدرس ومجالس الوعظ وقراءة القران ؛ ينظر، القزويني ، زكريا بن محمود ، ،(ت، 682هـ/1283م)اثار البلاد واخبار العباد ، (بيروت ، 1960) ، ص240؛ ابن بطوطه ، رحلة ابن بطوطة ، ج1 ،ص55

(35) حسن عبد الحميد صالح ، الحافظ ابو طاهر السلفي ، (بيروت ، 1977) ص45

(36) السيوطي ،عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (ت،911هـ/1505م)حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة: تحقيق ، محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر :دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وشركاه،ط1 (مصر 1387 هـ / 1967 م)ج1 ، ص498

(37) محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الأيوبي، دار المعارف المصرية، (القاهرة.بلا) ،ص333

(38) ابن خلكان ، وفيات الأعيان: ج 3،ص158

(39) المصدر نفسه ، ج 3،ص158.

(40) المصدر نفسه ، ج 3،ص158.

(41) المصدر نفسه، ج 3،ص158

(42) محمد زغلول سلام ، الأدب في العصر الأيوبي، ص 192 .

(43) ابن خلكان ، وفيات الاعيان، ج 3،ص158

(44) وفيات الأعيان، ج 3،ص161. .

(45) في الأصل (المصير) وقد صححتها.

(46) محمد زغلول سلام الأدب في العصر الأيوبي،ص192 .

(47) المرجع نفسه ،ص 193

(48) العماد الاصبهاني ، الخريدة ،القسم المصري ،ج1 ،ص101

(49) ياقوت الحموي ، معجم الادباء ، ج19 ، ص117

(50)المقريزي ، الخطط ،ج2 ،ص160

(51) الوهراني ،منامات الوهراني ومقاماته ورسائله ، ص232
(52) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ،ص27
(53) ياقوت الحموي ، معجم الادباء ، ج6 ،ص 118
(54) ابن خلكان ،وفيات الأعيان ج،1،ص210
(55) المصدر نفسه، ج،1،ص210
(56) المصدر نفسه ، ج،1،ص210
(57) المصدر نفسه ،ج1 ،ص211
(58) الخريدة ،القسم المصري ،ج1 ، ص100-101
(59) الزركلي ، خير الدين ، الاعلام ، ط1 ،(بيروت ، 1979م)ج1 ، ص203
(60) ياقوت الحموي ،معجم الأدباء ،ج6 ،ص117؛ البغدادي ، إسماعيل باشا ،(ت، 1339هـ/ 1920م) هدية العارفين وأسماء المؤلفين وأثار المصنفين ،(بيروت ،)1982 ، ج1 ، ص205
(61) ياقوت الحموي ،معجم الأدباء ،ج6 ،ص117؛ الغساني ، اسماعيل بن العباس،(ت، 803هـ/1400م) ، المسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك ،تحقيق شاكر عبد المنعم ،(بغداد ، 1975)، ص151؛ مصطفى عبد الله المعروف حاجي خليفة ، (ت،1068 هـ/1657 م) كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون (بيروت ،1982) ،ص 45
(62) ياقوت الحموي ،معجم الأدباء ،ج6 ،ص117
(63) المقريزي ، الخطط ،ج2 ، ص160
(64) ياقوت الحموي ،معجم الأدباء ،ج6 ،ص117؛ البغدادي ، هدية العارفين ، ج1 ، ص205 ؛ كحالة ،عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني (ت، 1408هـ/1987م) معجم المؤلفين الناشر: مكتبة المثنى ،، دار إحياء التراث العربي(بيروت ،بلا)، ج2 ،ص249
(65) ياقوت الحموي ،معجم الأدباء ،ج6 ،ص117
(66) المصدر نفسه، ج6 ،ص118؛ البغدادي ، هدية العارفين ، ج1 ، ص205
(67) ياقوت الحموي ،معجم الأدباء ،ج6 ،ص117
(68) المصدر نفسه ،ص117
(69) المصدر نفسه ج6،ص117
(70) المصدر نفسه ،ج6ص117
(71) المصدر نفسه ،ج6ص117
(72) البغدادي ، هدية العارفين ، ج1 ، ص205
(73) ياقوت الحموي ،معجم الأدباء ،ج6 ،ص118
(74) المصدر نفسه، ج6 ،ص118
(75) المصدر نفسه ، ج6 ،ص118
(76) المصدر نفسه ، ج6 ،ص118
(77) المصدر نفسه، ج6 ،ص118؛ البغدادي ، هدية العارفين ، ج1 ، ص205
(78) المصدر نفسه، ج6 ،ص118؛ البغدادي ، هدية العارفين ، ج1 ، ص205
(79) المصدر نفسه ج6 ،ص118
(80) المصدر نفسه، ج6 ،ص118،
(81) المصدر نفسه ،ج6 ،ص118
(82) لمصدر نفسه، ج6 ،ص118

(83) البغدادي ، هدية العارفين ، ج1 ، ص205
(84) الصفدي ،الوافي بالوفيات، ،ص45
(85) الاصبهاني ،خريدة القصر وجريدة العصر، القسم الاول ، ج1، ص45
(86) المصدر نفسه ، ،ج1، ص47
(87) المصدر نفسه ، ،ج1، ص47
(88) المصدر نفسه ،ص48
(89) المصدر نفسه ،ص49
(90) المصدر نفسه ، ج1 ،ص 109
(91) ياقوت الحموي ،معجم الأدباء ،ج6 ،ص118
(92) البغدادي ، هدية العارفين ، ج1 ،ص205
(93) البغدادي ، هدية العارفين ، ج1 ،ص205
(94) المرجع نفسه ،ص 71- 77
(95) عبد اللطيف حمزة، حكم قراقوش ،مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده(القاهرة، ، 1945) ص 10
(96) المرجع نفسه، ص12
(97) فاروق سعد، قراقوش ونوادره، ط 1، :دار الآفاق الجديدة، ،(بيروت1990)، ص68
(98) عبد اللطيف حمزة، حكم قراقوش، ص45 ؛محسن خضر، قراقوش عبقرية ظلمها التاريخ، مجلة الخفجي، العدد ٥ ،(السعودية ، 1989)ص 17
(99) البنداري ،الفتح بن علي بن محمد البنداري،(ت، 597هـ/1200م)سنا البرق الشامي، تحقيق : فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي (القاهرة ، 1979) ص 111
(100) النائب:وظيفة إدارية يتمتع صاحبها بصلاحيات واسعة منها تعيين الموظفين وعزلهم وتوزيع الإقطاعيات وغير ذلك ، ينظر السبكي ، تاج الدين عبد الوهاب ،(ت، 771هـ/1369م) معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق:محمد النجار وآخرون، دار الكتاب العربي ،ط ١ (القاهرة ،1948) ص 621 ؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ج 3،ص221
(101) أبن خلكان، وفيات الأعيان ج 3،ص 254؛ الدواداري عبد الله بن ايبك (ت، 736هـ / 1335م) كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: سعيد عبدالفتاح عاشور،(القاهرة ، 1972)ج ،ص151 ؛ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ،ج 6،ص186
(102) ينظر نظير إحسان سعداوي،التاريخ الحربي المصري في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة :، 1957) ص 13
(103) ينظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج 3،ص 254 ؛ الدوادري، كنز الدرر،ج ٧،ص ٥١ ؛المقريزي، الخطط، المقريزية ،ج2، ص ١٢٣ ؛ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة،ج ٦ ،ص176 ،
(104) ابن خلكان، وفيات الأعيان،ج3 ،ص254 ؛ الدوادري، كنز الدرر،ج 7 ص151
(105) أبن شداد ، بهاء الدين يوسف بن رافع بن شداد ،(632هـ/1234م)النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المعروف بسيرة صلاح الدين، تحقيق جمال الدين الشيال،الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر،(القاهرة،1964) ،ص 23،
(106) المقريزي، تقي الدين احمد بن علي (ت،845هـ، /1441م) السلوك لمعرفة دول الملوك، تصحيح: محمد مصطفى زيادة، مطبعة دار الكتب المصرية،(القاهرة، . 1934م) ج ١،ق1 ، 132

(107) الشاد:وظيفة عسكرية مهمة القائم بها مصاحبة جباة الضرائب لتوفير الحماية لهم من تجاوزات المطالبين بها وإرغامهم فيما إذا حاولوا المماطلة على دفع ما عليهم من ضرائب؛ السبكي، معيد النعم، ص 28

(108) المقريزي، السلوك،ج ١،ق ١،ص132،

(109) عبد اللطيف حمزة، حكم قراقوش،ص68

(110) ابن واصل، مفرج الكروب، ج 3 ، ص90

(111) العماد الأصفهاني محمد بن محمد حامد بن حامد(ت، 597هـ/1200م) الفتح القسي في الفتح القدسي ،مطبعة بريل، (ليدن ، 1887 م) ص118

(112) ابن شداد، النوادر السلطانية ،ص 240

(113) عبد اللطيف حمزة، حكم قراقوش، ص 15.

(114) المرجع نفسه ، ص16

Son of Mamati (T، 609 AH / 1209) Egyptian، his biography and his book Fushoush in the rule of Qaraqosh

Assist . Prof . Dr . Enas Emad Abdul Munem
Al – Mustansriya University
College of Arts Department of History

Fushoush in the rule of Qaraqosh

We have Starred the son of e from among the members of his family and he got a great reputation، the governor of the state secrets confession remains through his secret information on agricultural production، private business in Egypt and its environs، where he was invited in his book the laws of SPOKESPERSONS Egyptians to state support for the confession remains to exert maximum effort for the lawsuit.

I have known the son of administrative efficiency، but also knew many works have a unfriendly men being men of illustrious quipped it enjoys a high degree in copyright and completed a large group of works.

comes the importance of the book of the theme، which revolves around the character of qaraqosh which represents the confession remains The Minister of War، when the confession remains The Proximity to Sultan Salahuddin، making him a senior military commander. After the death of Sultan Salahuddin served to his son Sultan Aziz، and for a just a few of the sultan، then hid in the shadows until his death